العراق

حينما تنهض الحضارة من رماد المحن

د. خميس بن عبيد العجمي
رئيس مجلس إدارة مجموعة تمكين الاستثمارية
رئيس مجلس أمناء سلسلة مدارس كينو الخاصة

في لحظة صمت عميقة، حين يخيّم الليل على أطلال بابل، وتهمس الرياح بأسرار السومريين بين أعمدة أور المتهالكة، وتمرّ نسمات الفجر لتلامس صفحات مياه دجلة والفرات اللذين شهدا ميلاد الحضارة الإنسانية... في تلك اللحظة بالذات، يمكنك أن تسمع نبض أمة لم تمت قطّ...

إنّه العراق...

هو ليس مجرّد اسمٍ على خريطة، إنّما ذاكرة حيّة للبشريّة جمعاء، فهو أرضٌ حملت على كتفيها عبء كونها "مهد الحضارات"، ودفعت ثمن عظمتها أنهاراً من الدموع وجبالاً من الألم، أمّةٌ عاشت بين مجد الماضي الأسطوريّ وجراح الحاضر الدامية، لكنّها اليوم تقف شامخة، رغم كلّ شيء، على أعتاب فجر جديد...

فهذه ليست قصّة انتصار سهل، إنّما ملحمة صمود إنسانيّ وحكاية شعب علّم العالم الكتابة، ثم كُتبت على جلده فصول من أقسى محن التاريخ، قصة شعب أضاء للدنيا شعلة المعرفة، ثم احترق في نيران الحروب، ولكنّه، ككلّ مرة، ينهض من جديد، كالعنقاء تنهض من رمادها...

ففي أرض العراق، في سهول ما بين النهرين، بدأ الإنسان رحلته الحضارية الأولى، حين قرر أنْ يحوّل الفكرة إلى كلمة مكتوبة، والفوضى إلى نظام، فلم يكن السومريون مجرّد قبائل تسكن الأرض، بل كانوا فلاسفة الطين والماء، الذين حوّلوا الحاجة إلى إبداع، فاخترعوا الكتابة المسماريّة، فأصبح الإنسان قادراً على نقل أفكاره عبر الزمن، وشقّوا القنوات، فتحوّلت الصحراء إلى جنّات، ورصدوا النّجوم، ووضعوا أسس علم الفلك، ووضعوا القوانين، فصار للعدل معنى مدوّناً...

فها نحن نرى ....أسماء علماء واشخاص كان لهم بصماتهم

ومن ثمّ جاء بعدهم البابليون، فأعطوا العالم شريعة حمورابي، أول قانون مكتوب ينظّم العلاقات الإنسانيّة بالعدل، ومن ثمّ جاءت بغداد العباسيّة، حاضرة الدنيا، حيث "بيت الحكمة" الذي احتضن علماء من كلّ الأديان والأعراق، محقّقاً الوحدة الإنسانيّة في طلب العلم...

فما قدّمه العراق القديم لم يكن ترفاً حضارياً، إنّما كان رسالة إنسانيّة حملها أبناؤه للعالم، فقد علّمونا أنّ الحضارة ليست في القوة العسكريّة وحدها، إنّما في قدرة الإنسان على تحويل المعاناة إلى إبداع، والحاجة إلى ابتكار، فهذا هو الدرس الخالد؛ أنّ الأمم لا تُقاس بما تملك، بل بما تُعطي...

ولكنّ العراق في العقود الأخيرة عاش مرحلة من الحروب المتتالية التي تركت جراحاً عميقة في النّسيج المجتمعيّ والعربيّ، وحصاراً خانقاً جوّع الأطفال وأذلّ الكرامة، واحتلالاً أجنبياً مزّق وحدة الوطن، وإرهاباً وحشياً حاول محو الهويّة وطمسها...

فشاهد العراقيّون مدنهم تتحوّل إلى ركام، ومستشفياتهم إلى أطلال، ومدارسهم إلى ساحات حرب، وهاجر العلماء، وقُتل المفكّرون، وتشرّد الأطفال، ولكنْ في قلب هذه المأساة، ظلّت روح الأمّة حيّة، لأنّ الأمم لا تموت بموت الأجساد، بل تموت حينما تفنى الإرادة...

فكلّ محنة عاشها العراق كانت في جوهرها امتحاناً لإرادة الحياة، وصقلاً لمعدن العراقيين الأصيل، وأعادت إليهم وعياً بقيمة الوطن والاستقلال والكرامة...

فحين انتصر العراق على الإرهاب، فهو قد انتصر على فكرة الموت، فقد أثبت العراقيّون أنّ الحياة أقوى، وأنّ الإرادة الجماعيّة قادرة على هزيمة أعتى الظلمات...

فها هي الموصل والرّماديّ والفلوجة تشهد اليوم حركة إعمار حقيقيّة، فالجسور تُشاد، والمدارس تُفتح، والمستشفيات تستقبل المرضى مجدّداً، فهذا الإعمار الماديّ هو انعكاس لإعمار الروح، فالبناء ليس في الحجر فقط، بل في إعادة الأمل إلى القلوب، والابتسامة إلى وجوه الأطفال....

فقد أدرك العراق أنّ الاعتماد على"الذهب الأسود" وحده عبوديّة مقنّعة، واليوم، هناك توجّه جادّ نحو الزراعة، والسياحة الدينية والأثرية، والقيام بمشاريع تنمويّة، كمشروع "ممر التنمية" الإستراتيجيّ الذي يربط آسيا بأوروبا، ويعيد للعراق موقعه التاريخي كجسر حضاري وتجاريّ، فهذا المشروع ليس مجرد طريق، بل هو إعلان بأنّ العراق يستعيد دوره المحوري في العالم، كما كان أيام طريق الحرير...

هذا ويلعب العراق اليوم دوراً دبلوماسياً متوازناً، فهو جسر بين الشرق والغرب، وبين إيران والخليج، وبين العرب والعالم، فهذا الدور يعكس حكمة قديمة مفادها أنّ القوّة الحقيقيّة ليست في الانحياز الأعمى، بل في القدرة على الحوار والتوازن...

كما ويمتلك العراق احتياطيّات نفطيّة تتجاوز 145 مليار برميل يقدّر بسعر اليوم ب 9 تريليون دولار، وغازاً طبيعياً يقدّر بـ3.5 تريليون متر مكعب، ولكنْ كما علّمنا التاريخ، فقد يكون هذا النفط نقمة إنْ لم يُحسن استثماره، فالعراق اليوم يواجه تحدياً يتعلّق بتحويل النفط من سلعة تُباع، إلى وقود لبناء اقتصاد معرفيّ متنوّع...

ناهيك عن أنّ نهري دجلة والفرات، النهران اللذان صنعا حضارة "أرض السواد"، يواجهان اليوم تحدّيات وجوديّة بسبب سياسات دول الجوار والتغير المناخي، فإنقاذ الماء يعني إنقاذ الحياة ذاتها، إلى جانب كون العراق الأرض الخصبة، وسلة الغذاء المنسية، فقد كانت تموره الأشهر عالمياً، فإحياء الزراعة ليس فقط مسألة اقتصادية، بل هو استعادة للهوية، فالزراعة تربط الإنسان بأرضه، وتعلّمه الصبر والعطاء...

ولكنْ، فإنّ أثمن ما يملكه العراق ليس النفط ولا الماء، إنّما عقول أبنائه، ففي الداخل، يصمد علماء وأكاديميون رغم الظروف الصعبة، يعلّمون ويبحثون بأقلّ الإمكانيّات، وفي الخارج، يشكلّ العلماء العراقيّون المهاجرون كنزاً ضائعاً في جامعات أمريكا وبريطانيا وألمانيا وكندا...

فنهضة العراق الحقيقيّة تبدأ من الاستثمار في الإنسان، استثماراً يُبنى على برنامج وطني شامل لاستقطاب العقول المهاجرة، وتوفير بيئة بحثية محفزة، وتمويل سخيّ للبحث العلميّ وتطوير المنظومة التعليميّة، ويكون الجزء الأكبر من عوائد النفط روافد تمويليّة للتنمية الوطنيّة وبناء الإنسان العراقيّ...

فهناك رؤية مستقبليّة تلوح في أفق العراق، رؤية أسسها...

الإنسان أولاً، فالاستثمار في التعليم والصحة يجب أنْ يكونا الأولوية القصوى، وتوفير مدارس بمستويات عالميّة، وجامعات منافسة، ورعاية صحيّة شاملة أولويّات لا حياد عنها، لأنّ الإنسان العراقي هو المشروع الأكبر...

العدالة الاجتماعيّة، فلا نهضة دون عدالة، فيجب توزيع الثروة بإنصاف، ومحاربة الفقر، وتوفير فرص متساوية للجميع...

الوحدة الوطنيّة، فالعراق كلوحة فسيفساء غنية من القوميات والأديان والمذاهب، وهذا التنوّع هو قوة لا ضعف، شرط أنْ نبني على القواسم المشتركة، لا على الفوارق. ..

الحكم الرشيد، فبناء مؤسّسات قويّة، نزيهة، شفّافة، خاضعة للمساءلة ودولة القانون هي الضمانة الوحيدة للاستقرار والتقدّم..

الانفتاح على العالم بثقة، فالعراق يجب أنْ يكون شريكاً فاعلاً في المجتمع الدولي، لا ساحة للصراعات الإقليمية، وذلك بالانفتاح الواثق على العالم، مع الحفاظ على الهوية والاستقلال.

وبعد،

ففي لحظة تأمّل أخيرة، أمام شاطئ دجلة، بمائه الذي يجري كما جرى منذ آلاف السنين، ندرك أنّ العراق أكبر من الجغرافيا، فهو فكرة، حلم وإرادة، ونهضته ليست حدثًا إنّما رحلة قد تكون طويلة وشاقة ولكنّها بدأت في كلّ مدرسة تُفتح، في كلّ جسر يُشاد، في كلّ طفل يحلم، في كلّ عالم يعود، في كلّ مصنع يُنشأ، في كلّ حقل يُزرع، بدأت الرحلة وبدأت النهضة تولد معها من جديد...

فالعراق الذي علّم العالم الكتابة، سيعلّمه اليوم درساً أعمق؛ ألا وهو درس الصمود..

فالعراق الذي أضاء للدنيا شعلة المعرفة، سيشعل اليوم شعلة الأمل...

والعراق الذي كان مهداً للحضارة، سيكون مهداً للنهضة الإنسانيّة الجديدة..

فمن تحت الرماد، ومن بين الأنقاض، ومن قلب المعاناة، ستشرق شمس جديدة، شمس لا يخبو نورها، لأنّها مشتعلة بإرادة شعب علّم البشرية معنى الخلود الحضاريّ،

فالعراق لن يموت، لأنه ليس مجرد وطن... إنّما هو ضمير الإنسانيّة الحيّ...

وهنا همسة لكم، أبناء العراق الأبطال،

كونوا صفاً واحداً يجمعكم حبّ الأرض وصدق الانتماء، فبوحدتكم تُبنى الأوطان وتُصان الكرامة، وتذكّروا أنّ قوّتكم في تماسككم، وأنّ يداً واحدة لا تصفّق، لكنّ الأيدي المتشابكة ترفع الوطن عالياً..

احموا تنوّعكم الثقافي والديني، فهو ثروة العراق التي ميّزته عبر العصور، وجسّدوا روح التسامح والتعايش التي ورثتموها عن حضاراتٍ خطّت أول حروف العلم والنور...

انبذوا العنف والكراهية، فالعراق لا ينهض إلاّ بالمحبة والعمل والعقل المستنير، وكونوا كالنخيل، جذوركم ثابتة في الأرض، وفروعكم تظلّل الجميع بلا تمييز....

فبالوحدة والرحمة والعفو تصنعون عراقاً مزدهراً، آمناً، يليق بمجد أجدادكم وعظمة حضارتكم....